

دور القوافل الصحراوية في توطيد العلاقة التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن 18م

The role of desert caravans in consolidating the trade relationship between the two states of Algeria and Tunisia during the 18th century

شبل زينب^{*1}

¹ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سوسة

zineb.chebel39@gmail.com(تونس)

تاريخ التسليم: 2023-1-19 تاريخ التقييم: 2023-2-3 تاريخ القبول: 2023-5-11

Abstract

الملخص

This article aims to monitor the course of the role of desert caravans in consolidating the trade relationship between the two states of Algeria and Tunisia during the eighteenth century, by highlighting the nature of the commercial caravans that were active between the two states of Algeria and Tunisia during the Ottoman era and the most important main and secondary roads that were used by those convoys Trade between Eyalti, highlighting the importance of the trade of these caravans on Eyalti through political, economic and social effects.

Keywords : Commercial convoys, the province of Algeria, the province of Tunisia, economic, political, cultural and social relations.

يهدف هذا المقال إلى رصد مسار دور القوافل الصحراوية في توطيد العلاقة التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر، وذلك من خلال إبراز طبيعة القوافل التجارية التي كانت تنشط بين إيالتي الجزائر وتونس خلال العهد العثماني وأهم الطرق الرئيسية والفرعية التي كانت تسلكها تلك القوافل التجارية بين إيالتي، ومبرزين بذلك أهمية تجارة هذه القوافل على إيالتي من خلال الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية. الكلمات المفتاحية: القوافل الصحراوية، إيالة الجزائر، إيالة تونس، العلاقات التجارية، العهد العثماني.

1. مقدمة:

إن الدارس والمتتبع لأطوار العلاقات التي ربطت الجزائر بتونس خلال الفترة العثمانية على وجه الخصوص يلاحظ وبوضوح ذلك التباين الحاصل في العلاقات السياسية بين الإيالتين الجزائرية والتونسية، في حين أغفلت الدراسات والبحوث الأكاديمية جوانب أخرى من حياة المجتمع المغربي، وهنا نخص بالذكر الجانب الاقتصادي، إذ يعتبر النشاط الاقتصادي باختلاف أنواعه محورا أساسيا في رسم طبيعة العلاقات بين الدول، حيث شكلت القوافل التجارية رابطا مهما في التواصل بين الإيالتين الجزائرية والتونسية وتفعيل الحركة التجارية بينهما حيث مست أغلب مواطنهما، ولذا نرى أغلب الدول تعمل دائبة للإستيلاء على غيرها لتجعل منها أسواقا لبضائعها وعلى إثرها تكون التجارة الخارجية مربحة للطرف المسيطر، وعليه فإن الإنتصارات التي حققتها إيالة الجزائر في تونس على عدة فترات متقطعة خلال العهد العثماني كان رهينة شروط اقتصادية مقابل تقديم دعم سياسي وحتى عسكري وهذا من خلال تقديم تسهيلات تجارية وامتيازات عينية، حيث أصبح النشاط التجاري مع تونس يضمن لها موردا اقتصاديا هاما، خاصة خلال القرن الثامن عشر للميلاد والذي اتخذناه نموذجا للنشاط الاقتصادي الجزائري مع تونس لما يتوفر فيه من معلومات وهذا وفق مصادر أرشيفية تثبت ذلك أيضا.

ولقد لعبت طرق والقوافل التجارية دور كبيرا في التواصل الاقتصادي بين إيالتي الجزائر تونس خلال أواخر العهد العثماني، حيث ارتبط هذا التواصل بأسس ساهمت وأعطت دفعا قويا بين الإيالتين، ولذا جاءت هذه الدراسة لتجيب على الإشكالية التالية: ما هو دور الذي لعبته القوافل الصحراوية في توطيد العلاقة التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر؟ وللإجابة عن هذه الإشكالية وجب علينا طرح العديد من التساؤلات التي من شأنها أن تميظ الثام على حيثيات البحث، وتساعدنا في الإحاطة بالإشكالية من كافة جوانبها والمتمثلة فيما يلي :

ما طبيعة القوافل التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس؟ وما هي أهم المشاكل والمعيقات التي كانت تواجهها هذه القوافل؟ وما هي الطرق والمسالك الرئيسية التي كانت تسلكها هذه القوافل بين إيالتي؟ وما أهمية تجارة هذه القوافل الصحراوية ودورها الاقتصادي على الإيالتين؟

كما حتمت علينا طبيعة الموضوع والإشكالات التي طرحناها الاعتماد على مناهج تاريخية متنوعة تقتضيها مضامين العناصر المدرجة في المقال، وذلك من خلال تتبع مسار الأحداث تقديم وصف شامل ودقيق لواقع وطبيعة العلاقات التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال لقرن الثامن عشر جعلنا نعتد بشكل كبير على المنهج الوصفي لعرض الأحداث التاريخية المتعلقة بتلك الفترة

ومظاهرها، بالإضافة إلى المنهج التحليلي لفهم طبيعة آثار العلاقات التجارية للقوافل وربطها بواقع العلاقات الاقتصادية.

وتهدف هذه الدراسة إلى إدراك ورصد دور القوافل التجارية وأهم المسالك والطرق التي تسلكها هذه القوافل المتجه من الجزائر إلى تونس خلال العهد العثماني، ومعرفة طبيعته المبادلات التجارية، وصولاً إلى رصد المظاهر الثقافية الناتجة عن حركة القوافل التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس، لنصل في نهاية البحث إلى إبراز دور القوافل الصحراوية في توطيد العلاقات التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال أواخر العهد العثماني.

2. القوافل الصحراوية تنظيمها والمشاكل التي تواجهها

1.2 تعريف القافلة

❖ لغة

قفل - القفول، الرجوع من السفر، وقيل القفول رجوع الجند من الغزو، قفل القوم يقفلون، بالضم قفولاً وقفلاً ورجل قافل من قوم قفال، والقفل اسم للجمع تقول: جاهم القفل والقفول، واشتق اسم القافلة من ذلك، لأنهم يقفلوم وقد جاء القفل بمعنى القفول، ويقول ابن منظور: سميت القافلة قافلة تفاعلاً بقفولها عن سفرها الذي ابتدأته، قال: وظنّ ابن قتيبة أنّ عوام الناس يغلطون في تسميتهم الناهضين في سفر أنشئوه قافلة، وأنها لا تسمى قافلة إلا منصرفة إلى وطنها، وهذا غلط ما زلت العرب تسمى الناهضين في ابتداء الأسفار قافلة تفاعلاً بأن يبسر الله لها القفول، وهو شائع في كلام فصحاءهم إلى اليوم (ابن منصور، 2005، ص 634).

❖ اصطلاحاً

فالمقصود بالقافلة التجارية وهي تنظيم مسبق تقوم به جماعات أغلبها تجار قد تختلف أصولهم، ولكن هدفها اقتصادي وهو الربح التجاري والمتاجرة بيعة وشراء، وهذه القافلة لها مستلزمات بشرية وحيوانية وتقسّم عليهم المهام لضمان سير القافلة (حفيان، 2013-2014، ص 55).

2.2 مستلزمات القافلة

من الطبيعي أن تشمل القافلة مستلزمات بشرية وحيوانية لتسييرها بشكل منظم، تختلف وظائفهم كل حسب مهامه، وهي مشكلة في الآتي:

1.2.2 مستلزمات بشرية

- ❖ **قائد القافلة :** لا بد أن يكون لها قائد من أجل ضمان سيرها جيدا، ويكون مسؤولا عنها، ودوره الرئيسي يكمن في توجيه نواة القافلة وتنظيم سيرها الذي يتغير بتغيير التضاريس، وحالة الأمن في الطريق والارتباط بوزن الحمولة وثقلها.
- ❖ **الأداء :** جمع دليل ويأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد قائد القافلة ويطلق عليه أيضا اسم الخبير أو المنير أو المرشد باعتباره سائق القافلة، وحتى النجاح الاقتصادي والربح التجاري مقرون بخبرته على أنه عالما بالطرق والدروب، ودوره أساسا يتمثل في الإرشاد إلى الطريق الصحيح وإلى نقاط الماء وإيصال القافلة إلى غايتها المرجوة (حفيان، 2013-2014، ص 63-64).
- ❖ **الحراس :** من أجل حماية القافلة من العصابات وقطاع الطرق ومن غارات الأعراس، ويختارون منهم (بوعزيز، 2008، ص 57) المحاربين المسلحين.
- ❖ **الإمام :** الذي يتولى إمامة القافلة.
- ❖ **الطبيب :** المعالج تحسبا لأي طارئ عضوي قد يمس أحد رواد القافلة.
- ❖ **الكاتب المكلف :** والذي يقوم بتسجيل كافة العقود من البيع والشراء وتسجيل الوفيات إن وجدت أثناء سير القافلة.
- ❖ **البراح :** الذي تسند له مهمة التبليغ بصوت عال عند وقوع أي حدث أثناء الرحلة، إضافة إلى التجار وهم أصحاب السلع (العايب، 2013-2014، ص 70).

2.2.2. المستلزمات الحيوانية

الإبل والخيول والبغال: يحتل الإبل المرتبة الأولى لما يتميز به من خصائص خاصة في التكوين الجسماني وتحمله لمشاق السفر وخاصة في المناطق الجنوبية، أما الخيل والبغال فهو أيضا من وسائل النقل المطلوبة والمرغوبة (حفيان، 2013-2014، ص 58).

3.2.2. مستلزمات مادية :

بالإضافة إلى تزودها بموارد مادية من حبال متينة لحزم بضائعهم، ومواد غذائية تغطي كافة حاجيات القافلة طيلة فترة السفر (العايب، 2013-2014، ص 20). ومن المعلوم فإن القافلة دائما ما تواجه مشاكل وصعوبات أثناء سيرها، ونفس الحال بالنسبة للقوافل الجزائرية التي تتوافد على تونس، ولهذا اتخذت الدول المغاربية عدد من الإجراءات لكي تحمي قوافلها من هاته التحرشات، وفيما يلي أبرزه:

- ❖ تزويد القافلة بالأسلحة الكافية لكي تدافع عن نفسها، وترغم المهاجمين على الارتداد ودفع تعويض عن كل خسارة.

- ❖ تزويد القافلة بالأمتعة التي يمكن أن تحتاجها القافلة أثناء سفرها من ماء وغذاء.
- ❖ فرض ضرائب متنوعة على العريان مثل ضريبة العشر وضريبة تتكلف بإبلاغ القافلة مسبقا بكل تحركات العصابات البدوية حتى تحتاط منهم (بوعزيز، طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن 19 م، 1980، ص 208).

3.2 أنواع القوافل الصحراوية

إن الحديث عن القوافل الصحراوية بين الإيالتين يستوجب الوقوف عند أنواعها فهي ليست تجارية بحتة وإنما فيها جانب ثاني وهو جانب ديني أو ما يطلق عليه بقوافل الحجج (ركب الحج) الذي يقطع الإيالتين، وهذا الركب يزداد كلما توقف في محطة بانضمام الحجج في مسار رحلته (حفيان، 2013-2014، ص 56)، ويمكن عنا أن نميز بين نوعين من القوافل الصحراوية التجارية:

1.3.2 القوافل التجارية البحتة

وهي عبارة عن القوافل التجارية والتي يتمثل هدفه الرئيسي في المتاجرة بيعا وشراء بين مراكز وأرجاء الإيالتين، إذ تختلف مراكز انطلاقها واتجاهها بين إيالتي الجزائر وتونس حاملة مختلف السلع والبضائع ومستوردة احتياجات ومتطلبات السوق لديها، ولذا فإن هذه القوافل يصعب حصرها في قافلة أو قافلتين من حيث تنظيمها ومواعيد انطلاقها ومدى ضخامتها ومقدار حملتها إلى غير ذلك من التفاصيل (حفيان، 2013-2014، ص 56).

2.3.2 القوافل التجارية الدينية

لقد كان الحج فرصة سنوية للتجار لتحقيق الربح على طول الخط الطريق المؤدي إلى البقاع المقدسة (مكة)، لما يقع من بيع وشراء لما حملوه من سلع وبضائع يتم جمعها من مختلف المواضع والمحطات التي مروا بها، وقد جرت العادة أن تقوم بهذه الرحلة الدينية والدنيوية ثلاث قوافل انطلاقها من المغرب تحت قيادة أشرف مغاربة يتم اختيارهم بشروط (زبيري، 1972، ص 183)، وبالقابل يوفر الحجاج في طريقهم النقود وبعض السلع والبضائع المجلوبة من بلدانهم.

إذ عادة ما يمارس الحجاج حرفة التجارة في الذهاب والإياب لكسب قوتهم خاصة إذا علمنا بأن طريق الحاج شاق ويحتاج إلى التزود بالمال والمؤونة والاستعداد للدفع من أجل القوت والحمل والركوب والكسوة ومصاريق أخرى معروفة أو طارئة (حفيان، 2013-2014، ص 58).

4.2 المشاكل التي تواجه القوافل الصحراوية

1.4.2 المعوق الأمني

يعتبر الجانب الأمني من أهم العوامل المؤثرة في ازدهار الاقتصاد وتطوره وفي دفع حركة المبادلات التجارية ونشاطها، ويعرف الأمن في معاجم اللغة العربية أنه ضد الخوف (ابن منصور، 2005، ص 301)، فمن القواعد المسلم بها في الاقتصاد، أن رأس المال يهرب من مواطن الاضطراب والخوف لأنه لا يطمئن إلا للسكينة والأمن وهذا معناه أنه لا يمكن لنا التعرف على الوضع التجاري إلا إذا استطعنا الإحاطة بأوضاع الطريق وما يسوده من أمن واضطراب (قاسم، 2004، ص 52).

وتكشف لنا المصادر ومن أهمها كتب الرحلة التي تعتبر من أهم المصادر التي تعطينا تفصيل عن الوضع الأمني في الطرق التي تربط بين إيالتي تونس والجزائر، ومجمل المعلومات التي تقدمها لنا هذه المصادر تدور حول الاعتداءات والغارات التي كانت تقوم بها كل من القبائل والأعراش الجزائرية والتونسية خاصة منها القبائل التخومية التي تقطن في الحدود الجزائرية التونسية، والتي إستغلت مجالها لنصب الكمائن والإغارة على القوافل التجارية وهو سبب في الواقع حرجا كبيرا وإزعاجا لحكام الولايتين، حيث تعتبر هذه الاعتداءات والغارات المعوق الكبير والعامل أساسي في خلق الاضطراب والخوف وعدم الاستقرار في النشاط التجاري المتبادل بين البلدين.

ولقد كان أيضا غياب الأمن في كثير من مراحل طريق القوافل التجارية المتنقلة بين الجزائر وتونس، يشكل هاجسا كبيرا في نفوس التجار، وهذا بسبب الاعتداءات التي كان يقوم بها كل من القبائل والأعراش الجزائرية والتونسية على القوافل التجارية التي كانت تسلك الطرق البرية الرابطة بين البلدين، فقد كان لهذه الغارات والاعتداءات أثرا كبيرا في اضطراب الوضع الأمني وخلق توتر في العلاقات بين الإياليتين بشكل عام والتجارية بشكل خاص (حفيان، 2013-2014، ص 47).

ولإعطاء تصور واضح حول هذه الاعتداءات وانعكاساتها على حركية التجارة نورد على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، ما تعرضت له القافلة المنطلقة من قسنطينة نحو تونس وهي محملة بالبضائع النفيسة، والتي ما إن نزلت قرب نجع أولاد مناع حتى اجتمع أولاد هذه الأخيرة وانفقوا على الإغارة على القافلة، ففعلوا ذلك واستولوا على كل ما حوته هذه القافلة، وسط ذهول من أصحابها الذين لم يعهدوا هذا الشيء من أهل تونس (حمودة، 1970، ص 67).

لم تكن هذه المرة الأولى ولا الأخيرة التي يقدم فيها أولاد مناع على نهبهم لقوافل تجار قسنطينة، فقد كرر ذلك سنة 1173 هـ - 1760 م وأخذوا القافلة بما فيها (الأغواطي، 2011، ص 102)، فضلا عن أولاد مناع التونسية توجد قبيلة أخرى عرفت بقطع الطريق وهي قبيلة ورغمة وقد

ورد ذكرها في المصادر على أنها كانت من بين أشهر القبائل تعمل على السطو وقطع الطريق وهم من رعايا تونس (مالكي وآيت حبوش، 2022، ص 552).

2.4.2 المعوق الطبيعي

لم يكن لتلك الاعتداءات والغارات وما أحدثتها من اضطرابات أمنية العامل الوحيد في خلق معوقات تجارية بين الدولتين، بل كان هناك عاملا آخر ساهم في إعاقة التجارة وزاد الطينة بلة وشكل عقبة أمام نشاط التجار الجزائريين والتونسيين ويعرف ذلك العامل بالمعوق الطبيعي، والذي يتمثل في الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية من جفاف ومجاعات وجراد وزلازل.

حيث شهدت إيالة الجزائر في مطلع القرن الثامن عشر تدهور كبير في الأحوال الصحية للبلاد نتيجة لتكرار الأمراض التي تسلطت على الإيالة وكذلك لكثرة الكوارث الطبيعية، فكل هذه الكوارث كانت لها نتائج وخيمة على سكان مدينة الجزائر وحتى الإيالة، حيث تحصد هذه الكوارث أعداد كبيرة من السكان بعد وقوعها، تتسبب في وفات خلق كبير في المدن والأرياف وبذلك تتناقص اليد العاملة والبجارة والصناع والحرفين والتجار والعلماء وحتى الأسرى...، وكل ذلك يؤثر سلبا على اقتصاد المدينة وعلى عدد سكانها (صولي، 2008، ص 196).

كما لم تكن إيالة تونس هي الأخرى بمنأى عن تلك الأمراض الفتاكة والكوارث الطبيعية التي تعرضت لها الجزائر، فشأن إيالة الجزائر، فقد اتسمت إيالة تونس خلال القرن الثامن عشر بظرفية متقلبة بين سنوات متأزمة وأخرى خصبة، حيث تخللت السنوات المتأزمة أوبئة ومجاعات ويفيد عبد الحميد هنية أن بداية الصعوبات في الحقيقة كانت عشوية التي يصفها بالرخاء (1765 - 1775 م) (هنية، 2016، ص 196) بمجاعة 1776 إلى غاية 1778م أي انه استمر ثلاث سنوات هذا حسب ما ذكره لنا صاحب الكتاب الباشي الذي يذكر أن البلاد تعرضت لمجاعة شديدة، وقد قدم وصف دقيق لهذه المجاعة، ويقول في ذلك : " وما وقع الغلاء سنة إحدى وتسعين وما بعدها - وهي مجاعة شديدة - بلغ ثمن قفيز القمح فيها بالمحاضرة مائة ريال وأكثر وأما أطراف العمالة كبلاد الجريد فقد تجاوز فيها السعر المائتين وبلغ في بعض الأحيان الثلاثمائة وانتهى قفيز الشعير بالحضرة إلى بضعة وستين ريالا، وهلك الخف والكراع وانتشر الفناء في الماشية، ثم وقعت الموتان في الناس وعم المدن والقرى وأشدى الناس ضررا بذلك أهل البادية - فإن عامة مكاسبهم من الأنعام والمواشي - وقد هلكت - فانتالوا على المدن يتكفون في الأسواق - وأثر الضرر باد عليهم والمرض منتشر فيهم والموت يخطفهم ... واتصل ذلك إلى أن دخلت سنة ثلاث وتسعين (1193هـ) فترادف الغيث والأمطار وأدل الله الجذب خصبا ومن الغلاء رخاء " (حمودة، 1970، ص 309-310).

مما سبق نستنتج أن العوائق والمشاكل التي تصادفها القوافل في طرقها كانت تقلل من نسبة الأرباح لدى التجار، خاصة إذا تعلق الأمر بدفع ضرائب المرور أو كراء حراس لحماية القوافل والسلع من قطاع الطرق، أو التخلف وعدم الوصول إلى الأسواق في الوقت المناسب إن كل هذه العوامل مجتمعة كان لها تأثير سلبي على حركية النشاط التجاري بين الإيالتين وهذا من منطلق أن القوافل التجارية أصبحت تخشى التنقل بين الإيالتين لبيع وشراء السلع والبضائع.

كما أن هذا الصراع المزدوج دعم كثيرا قطاع الطرق الذين كانوا يمارسون السلب والنهب بالإضافة إلى أن العملة التي تصرف في الحدود بينهما في إطار عمليات المبادلات التجارية تأثرت قيمتها وأصبح هناك تداخل حتى في العملة (مشوشة، 2014، ص 29). وهو ما أدى أيضا إلى نقص توافد السلع التونسية بالأسواق الجزائرية وعلى رأسها زيت الزيتون والشاشية، نفس الشيء عرفته السلع الجزائرية بالأسواق التونسية ولتغطية هذا العجز في المنتوجات والبضائع كان يتم اللجوء إلى السلع الأوروبية أو الصحراوية، كل هذا وأكثر استغلته القبائل الحدودية للامتناع والتهرب عن دفع الضرائب.

إذن ما يمكن التوصل إليه في هذا الإطار أن الصراعات القبلية والعسكرية بين الإيالتين من خلال الحروب التي وقعت بينهما زادت من تباعهما السياسي، خاصة وأن تونس كانت تعتبر الجزائر بمثابة عدو- تقليدي لها، مما أثر تأثيرا مباشرا في نمو الحركية التجارية وزادت من انغلاقهما تجاريا (مشوشة، 2014، ص 30).

3. الطرق الرئيسية بين إيالة الجزائر وإيالة تونس

لقد عرفت القوافل التجارية التي تربط بين أسواق إيالتي الجزائر وتونس خلال العهد العثماني عدة مسالك وطرق صحراوية، والتي كانت تلعب دورا أساسيا في نشاط الحركة التجارية في الداخل والخارج، حيث كانت قسنطينة ووادي سوف وتقرت وورقلة أهم النقاط التي تبدأ بها القوافل رحلتها متجهة إلى تونس، ومن بين هذه المسالك والطرق نذكر:

1.3 طريق تونس قسنطينة

طريق تونس الذي يبدأ من مدينة قسنطينة، يسير نحو الجنوب قليلا ثم يرتفع نحو الشمال الشرقي ويشق كثيرا من القرى أهمها وادي زناتي ومجاز عمر وسوق أهراس قبل أن يصل إلى مدينة الكاف التونسية ومنها إلى عاصمة الإيالة، ولقطع هذا الطريق يستغرق السير لمدة خمسة وعشرين يوما عاديا وعلى رغم من أن المدة طويلة، فإن الرحلة إلى تونس ممتعة، لأن القافلة تجد دائما وبدون عناء كبير، كل ما يحتاج إليه من مرافق السير (زيبيري، 1972، ص 152)، ولذلك كان ثمن

كراء البغال من قسنطينة إلى تونس معتدلا للغاية يتراوح ما بين 15 و 25 فرنكا للبغل الواحد في الذهاب، وما بين 30 و 40 فرنكا في الإياب (حصام، 2012-2013، ص 150).

تعتبر قسنطينة عاصمة بايلك الشرق وأكبر مدنه ومقر جميع السلطات التنفيذية فيه، ولذلك كانت أكبر أسواق المنطقة في ذلك الحين يؤمها التجار من جميع النواحي ومن الإيالة التونسية أيضا، والذين كانوا توجه شهريا قافلة من حوالي ثلاثمائة بغل إلى مدينة تونس (زبيري، 1972، ص 152-153)، جالبة معها العديد من المنتوجات الجزائرية لكي تسوق في تونس (Maggil, 1815, P 156)

اليهود لتعير بعض السلع وتحديد أسعارها في البيع وفي الشراء (زبيري، 1972، ص 151-153)، مع العلم فإن قافلة قسنطينة كانت تحقق أرباحا تزيد عن نصف رأس مالها والذي يقدر شهريا حوالي بخمسائة ألف فرنك (Charles, 1872. P452)، ولعل القرب الجغرافي ساهم كثيرا في تنشيط العلاقات التجارية بين تونس وببايلك الشرق وخاصة عاصمته قسنطينة.

2.3 طريق قفصة ونفطة

الذي يخرج من مدينة وادي سوف ثم يسير شمالا نحو محطة قمار، حيث ينقسم فيخرج منه فرع يتجه مباشرة إلى مدينة نفطة ويواصل الأصل نحو الشمال الشرقي إلى قرية فرن، بحيث ينظم تجار الزيبان إلى القافلة، وبعد ذلك يميل أكثر إلى الشرق ليقف في مدينة قفصة، وإذا كانت المسافة ما بين الوادي ونفطة لا تتطلب سير أكثر من ثلاثة أيام عادية، فإن الذهاب إلى قفصة يستلزم أكثر من خمسة أيام، وعلى العموم فإن الطريق سهل فيه كثير من المياه، ولا تتعرض فيه القوافل إلا لبعض الكمان التي ينصبها من حين لآخر سكان واحة غدامس لنهبها تكيلا بأبناء وادي سوف الذين كثيرا ما كانوا يغيرون عليهم لنفس الغرض (زبيري، 1972، ص 156-157)، كما كانت مدينة الوادي تمثل همزة وصل بين الشمال والجنوب في هذه النقطة فإن اتصالاتها كانت قليلة بل كان تجارها يفضلون الذهاب إلى بسكرة وتقرت، كما كان يسهل عليهم الذهاب إلى المدن التونسية لأنها أقرب إليهم (حصام، 2012-2013، ص 151).

3.3 طريق نفطة غدامس

والذي ينطلق من تقرت ثم يتجه نحو الشمال ليمر بمحطة الفيض حيث ينظم تجار بسكرة إلى القافلة، وبعد ذلك يعود نحو الجنوب الشرقي ليصل إلى كوينين، ومنها يأخذ اتجاهين أساسين أحدهما شمالا نحو مدينة نفطة مباشرة وثانيها نحو الجنوب إلى سوق غدامس مرورا بمحلة البئر الجديد، وإذا كان الطريق إلى نفطة يقطع في أقل من خمسة أيام، لا تتعرض فيها القافلة لأخطار

الطبيعة لانتشار الآبار والعمران، وهذا يعرقل السير نحوها، ويذكر أيضا أن القوافل كانت يومية بين تقرت ومدن الجنوب التونسي، وكانت تنشط مع نفطة بالخصوص (زبيري، 1972، ص 157).

4.3 طريق غدامس

الذي يخرج من ورقلة ويتجه مباشرة نحو الشرق عبر الفيافي إلى أن يصل غدامس وهو طريق صعب للغاية، مغطى بكثبان الرمل المتنقلة ويتطلب قطعه عشر أيام طوال من السير السريع تطوي القافلة أثناءها مائة وستين ميلا لا تجد فيها المياه سوى مرة واحدة على بعد ثلاثة أيام من المنطلق، ومع ذلك فإن تجار ورقلة يسافرون باستمرار إلى هذه السوق التي تلتقي فيها قوافل تونس وطرابلس والسودان والجزائر وتتبادل ما عندها من السلع وتعود إلى منطقتها (زبيري، 1972، ص 157).

ومستخلص القول فإن الحركية التي شكلتها القوافل السالفة الذكر قد ساهمت في تنشيط التجارة بين الإيالتين بشكل كبير، حيث ساهمت في ربط مواطن الإيالتين، وحاولت القوافل الجزائرية الوصول إلى أبعد نقطة فيها من أجل اكتساب أسواق تساهم في عرض وتسويق منتوجاتها.

4. أهمية تجارة القوافل بين إيالة الجزائر وإيالة تونس

يبقى أن نشير هنا إلى أن الدور الذي قامت به تجارة القوافل الصحراوية بين الإيالتين من الجانب الاقتصادي في تنشيط حركة التبادل التجاري من ترويج للسلع والبضائع بين الأسواق مما تعدى دوره إلى توفير رؤوس الأموال وتحقيق الأمن الغذائي وخلق مناصب عمل من خلال عمليات التبادل التجاري بين الإيالتين، والتي يمكن توضيحها كما يلي:

1.4 المبادلات التجارية

كان للتبادل التجاري بين الإيالتين الجزائر وتونس دورا مهما في التواصل التجاري منذ العهد العثماني أي بداية القرن السادس عشر ميلادي إلى غاية القرن التاسع عشر ميلادي، والتي ساهمت فيه الجزائر من خلال تنشيط هذا التبادل بسبب موقعها الجغرافي في الوسط، وبذلك حفزت التواصل التجاري مع إيالة تونس في الشرق وبحكم هذه التبادلات ساهمت في ازدياد قيمة المبادلات التجارية على الرغم من أن بعضها كان يتم بالمقايضة.

1-1-4 الصادرات والواردات الجزائرية

تتنوع الصادرات والواردات الجزائرية في العهد العثماني على كثير من البلدان الأوروبية والأقطار الإسلامية والإفريقية ومما ساعد هذا التنوع هي ترابط العلاقات الجزائرية الخارجية وحرية التجارة وتوفر كميات كبيرة من المواد الأولية وحاجة الجزائر إلى بعض السلع والبضائع التي لا تتوفر

عليها هذه الأخيرة (سعيدوني، 2013، ص 210)، فالتجارة الجزائرية مع الأقطار العثمانية بالمشرق ومع إيالة تونس وسلطة المغرب، كانت تعتمد على المواد الكمالية والترفيهية.

إن الحديث عن القوافل المتبادلة بين إيالتي الجزائر وتونس يستوجب الوقوف عند أنواعها فهي ليست تجارية بحثه وإنما فيها جانب ثاني هو الجانب الديني، أو ما يطلق عليها بقوافل الحجيج (ركب الحج) الذي يقطع البلدان المغاربية انطلاقاً من المغرب الأقصى مرورا بالجزائر ثم تونس وليبيا متجها نحو المشرق (البقاع المقدسة) لتأدية مناسك الحج كل عام، فكانت هذه العملية سنوية لتحقيق أهداف دينية ودينية منها الحج وطلب العلم، وريح المال، قيل في ذلك حج وحاجة، فحين كانت قوافل ذات الطابع التجاري هدفها الرئيسي المتاجرة بيعا وشراء بين أرجاء ومراكز الإيالتين حاملة مختلف السلع ومستوردة احتياجاتها ومتطلباتها و نفس الوقت خضوعها لتنظيمات مسبقة قبل انطلاقها خروجهم لتجارة كاختيار الزمن والشهر المناسب والوقت، وفي غالب الأحيان لاسيما المتصلة بموسم الحج، مما جعل رأس المال المستثمر عن طريق القوافل الذاهبة إلى المشرق يبلغ مليوني فرنك في أوائل الاحتلال (سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830، ب ت، ص 37).

أما عن نوعية هذه المبادلات فيمكن استعراض أهم الصادرات حسب البلدان المتعاملة مع الجزائر، فالصناعة التقليدية والحريز عرفت ازدهارا كبيرا في المدن الجزائرية كشرشال مثلا وحتى يستطيعون تغطية كلفة الاستيراد كانوا يلتجئون إلى تصدير جزء من إنتاجهم إلى أقطار المغرب العربي (سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830، ب ت، ص 191)، وبالإضافة إلى هذا تصدير التمور إلى تونس من وادي سوف والقبعات المصنوعة من سعف النخيل ونبات الفود المعروف بعروق الصباغين الموجودة في تفرقت ويستعمل عادة في الصباغة والأدوية (شوتيام، 2005-2006، ص 349-350)، والقمح والشعير وكميات معتبرة من الزيت والشمع والصوف والجلود وريش النعام والمرجان (شويهد، 2012، ص 33-34)، ومن الحيوانات الطيور والأبقار والأغنام (سعد الله، ب ت، ص 101) والحرف اليدوية المطرزة والزرايبي (سبينسر، 2000، ص 144)، حيث أن العوامل الأساسية التي ساعدت على ازدهار العلاقات الاقتصادية بين البلدين هي وجود مدينة الكاف سوق للتجارة وملجأ لكسب الثروة ومركز للتبادل التجاري (عميروبي، 2002، ص 53)، أما الواردات الجزائرية هي الأخرى ارتبطت بالعلاقات التجارية بين البلدان الثلاث وتنقل القوافل بينهما ساعدها القرب في المسافة، وهذا بطبيعة الحال جعل الجزائر تستورد من تونس المصنوعات الأوروبية والعلطور إضافة إلى القهوة والأقمشة والكبريت، ضف إلى بعض الألبسة الصوفية أو المنتجات الأخرى.

4-1-2 الصادرات والواردات التونسية

كان النشاط التجاري المتبادل بين الجزائر وتونس يتم في الجهة الشرقية من البلاد الجزائرية وهذا ما تجدر الإشارة إلى وجود عملات تونسية متداولة في الجزائر مثل السلطاني التونسي (عباد، 2007، ص 345) والريال التونسي، منذ أن رفعت قيمته منذ عهد الحسين باي وخلفه مصطفى باي بزيادة وزنه فضة، فصارت قدرته الشرائية % 85 بعد أن كان %60 (عميراوي، 2002، ص 34).

كما أن العملة التونسية اعتمدت في مداولاتها النقدية بميزاب أيضا" وقد جاء في دفتر الحاج أبي بكر الحمد لله وحمده وقد أقر موسى بن محمد بن موسى بأنه وصله من عند أبي بكر بن باب بن إبراهيم سبعون ريال سكة تونسية من قبل ابنه باب وكان ذلك بتاريخ 1839 م"، وهذا ما يدل على التبادل التجاري بين الدولتين في هذه الفترة (شابي، 2013-2014، ص 72).

ومن أهم المنتوجات المصدرة من تونس إلى الجزائر نجد أن سكان تونس اشتبهوا بصناعة نوع من النسيج أطلقوا عليه اسم الشاشية فكان مصدر رزق أساسي للكثير منهم (ابو حمران، 1993، ص 18)، هذا ما جعلها تمول السوق الجزائري بالشاشية وبعض المنتوجات الأخرى (سعد الله، ب ت)، كما شجع حمودة باشا التبادل التجاري بين تونس والجزائر بالرغم من المشاكل والتي كانت قائمة بين الإيلاليتين.

حيث كانت تونس تستقبل بين الثماني والعشر قوافل تجارية سنويا من قسنطينة ثم أصبحت منذ سنة 1809م تستقبل تلك القوافل شهريا لا سنويا (الأمام، 1980، ص 319)، ضف إلى هذا نجدها تصدر كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة إلى الجزائر فكانت ثروة تونس الحقيقية ما يخرج من أراضيها وتربتها الطيبة (الخصبة بالنسبة لما جاورها، كما اهتمت بتصدير نسيج جربة والجريد (شابي، 2013-2014، ص 68-69). في حين كانت واردات تونس تشمل مجموعة من المواد أهمها: الجلود التي اعتبرت مادة ضرورية وهذا ما صرح به بايلك قسنطينة عام 1703 م القاضي ببناء مدايح في عنابة لحاجات الأهالي من جهة وتزويد تونس بحوالي 12 ألف جلد سنويا من جهة أخرى (زبيري، 1972، ص 99)، بالإضافة إلى أن القل تعد من أكبر منتجي الشمع ولهذا كانت الإيالة التونسية تستورد كميات معتبرة منه وذلك راجع لقرب الأسواق خاصة في ظل ارتفاع أسعارها مقارنة بأسعار الفرنسيين (ناهي، 2015-2016، ص 41)، إلا أن العلاقات بين البلدين كانت تشهد توتر أحيانا كون أن باي الجزائر أرسل بعض المواشي ليتم بيعها في تونس مع تعيين الثمن حسب ما يراه مناسب ضف إلى أن علي باي قسنطينة هو الآخر بعث الأنعام لبيعها في تونس بثمن يحدده بنفسه وهذا ما أزعج حمودة باشا، غير أن هذا ما يدل على أن تونس كانت تستورد من الجزائر (المواشي المتمثلة في الأنعام والأبقار. (ابن ابي الضياف، 2000، ص 40).

2.4 توفير رؤوس الأموال وتحقيق الأمن الغذائي

لقد وفرت تجارة القوافل لإيلاتي الجزائر وتونس كل أسباب التطور الاقتصادي، والاجتماعي، وهذا نظرا لما تجنيه لإيلاتي من أرباح، منها تحسين مستوى المعيشة، وتحقيق الأمن الغذائي وغيرها، كما وفرت له وساهمت هذه التجارة في تطور اقتصاده، بتوفير رؤوس الأموال متمثلة في قناطر الذهب الخالص، والتبر، وقوافل العبيد (الرقيق)، التي كانت تستغل في الخدمات والأعمال الكبرى مما انعكس إيجابا على نمو وتطور الحرف وظهور الصناعات ووفرة الإنتاج الزراعي، كما جعلت من منطقة شمال غرب إفريقيا محل جذب للتجار الأوروبيين بمختلف جنسياتهم مما جعل من أهدافهم السياسية السيطرة على تجارة القوافل لما تحقيق من فوائد وأرباح وهو الشيء الذي أدى بهم إلى الحد من منافسة التجار (حفيان، 2013-2014، ص 6).

3.4 توفير فرص العمل

لقد وفرت القوافل التجارية الصحراوية للعديد من سكان الإيلتين مناصب عمل لهم كحراس وأدلاء ومؤجري الجمال كما استفادت من جهة أخرى القبائل التي تمر عليها القوافل فوجدوا عملا كحمالين مرشدين إضافة إلى أن شيوخ القبائل كانت تمتاز بأن لهم هبات وأعطيات سنوية تقدم لهم لتأمين وسلامة الطريق والمرور في الصحراء. إلى جانب ذلك وفرت عمليات النقل وطرق القوافل أهمية كبيرة خاصة بالنسبة للقبائل الواقعة على نقاط العبور وكانت بموقعها على مصادر دخلها الذي يتم بين القوافل بالإضافة إلى ما تجنيه تلك القبائل من موارد مالية جراء توفيرها للحماية أو توفير المؤن ووسائل النقل أو خبراء في الطريق زيادة على ذلك الضرائب التي تفرضها نتيجة المرور، فكانت القوافل الصحراوية بذلك توفير مجالات للتشغيل (حفيان، 2013-2014، ص 6).

مما سبق يتبين أن الطرق والقوافل التجارية ساهمت في إنعاش المجتمعات بين الإيلتين وذلك من خلال توفير وخلق مناصب الشغل، أو استثمار لرؤوس أموال، أو المتاجرة إثر مرور القوافل الصحراوية بمختلف المحطات، بالإضافة إلى ما توفره من سلع وبضائع تعمل من خلالها على تنوع الواردات لهذه الإيالات بجلب منتجات جديدة إليها (حفيان، 2013-2014، ص 99).

4. الخاتمة

من خلال تطرقنا لموضوعنا هذا والمتعلق بدور القوافل الصحراوية في توطيد العلاقة التجارية بين إيلاتي الجزائر وتونس خلال القرن 18م، فإنه يمكننا استنتاج بأن النشاط الاقتصادي الجزائري التونسي بمختلف أصنافه قد شكل لطرفين موردا اقتصاديا هاما حيث ساهم في ملء خزينة الإيلتين، إذ تميزت التجارة مع تونس بنوعين تجارة خاصة بالحكام والتي تخص بيع المواشي الجزائرية وخاصة صنف البقر والتي لعب فيها الوكلاء الجزائريين في تونس دورا هاما من خلال

توزيعها بشكل منتظم ومحكم ببقيدات الجزائر، وتجارة خاصة بالعامّة وتتمثل في التجارة المتنوعة والمتبادلة مع تجار إيالة تونس مثل التمور والذهب وغيره، حيث طغت المنتوجات الجزائرية الأسواق التونسية بحيث كانت لا تجلب هذه الأخيرة من تونس إلا الكماليات.

وعلى الرغم من المشاكل والعراقيل التي كانت تعيق سير القوافل الصحراوية من غارات القبائل والأعراس وبالإضافة إلى المعيقات الطبيعية من زلازل وأوبئة وغيرها من العراقيل، إلا أن القوافل التجارية بين الإياليتين لعبت بمختلف مسالكها دورا مهما في تفعيل وتنشيط الحركة التجارية بين الإياليتين حيث جمعت أغلب مواطنها وخاصة مع الشرق الجزائري الذي كان بمثابة همزة وصل مع تونس بسبب القرب الجغرافي والإحتكاك الاجتماعي، وبذلك استطاع التجار من تفعيل حركة التجارة بين الإياليتين وتسويقهم للمنتوجات بكامل المواطن التونسية والجزائرية، والتي تمثلت في عمليات التبادل التجاري في ترويج السلع والبضائع التي من شأنها زادت في توفير رؤوس الأموال للخزينة إضافة إلى توفير وخلق مناصب عمل للجانبين الجزائري والتونسي.

5. المراجع:

❖ المراجع باللغة العربية

1. أبو القاسم سعد الله. (ب ت). محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال (المجلد 2). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
2. أحمد ابن أبي الضياف. (2000). أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تح: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية (الإصدار مج 2، المجلد 1). تونس: دار العربي للكتاب للنشر والتوزيع.
3. أحمد قاسم. (2004). إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوي ابن عظوم (1574-1600). تونس: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات.
4. أروقي شوتيام. (2005-2006). المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830، رسالة دكتوراه تاريخ حديث ومعاصر. الجزائر: جامعة الجزائر.
5. أسماء ناهي. (2015-2016). الامتيازات الاقتصادية الفرنسية في الجزائر 1800 - 1830، مذكرة ماستر في التاريخ الحديث والمعاصر. الجزائر: جامعة خميس مليانة.
6. الحاج ابن الدين الأغواطي. (2011). رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين في شمال إفريقيا والسودان والدرعية، تر وتح: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع.

7. الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منصور. (2005). لسان العرب المحيط، تحقيق عامر أحمد حيدر ومراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم (المجلد مج 5). بيروت ، لبنان: دار الكتب العلمية.
8. بن محمد ابن عبد العزيز حمودة. (1970). الكتاب الباشي، تح : ماضور محمد (المجلد ج 1). تونس: الدار التونسية للنشر.
9. حميدة عميراوي. (2002). علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي. الجزائر: دار البعث قسنطينة.
10. رشاد الأمام. (1980). سياسة حمودة باشا في تونس 1788- 1814. تونس: منشورات الجمعية التونسية.
11. رشيد حفيان. (2013-2014). الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغاربية وأثرها الخضاري في العهد الهثماني خلال القرنين 11-12 هـ و17-18م ، مذكرو ماجستير في التاريخ الحديث. قسنطينة، الجزائر: جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة.
12. سمير ابو حرمان. (1993). موسوعة عهد النهضة خير الدين التونسي. لبنان: دار الكتاب العالمي.
13. سمير مشوشة. (2014). النشاط التجاري بين الجزائر وتونس في القرن - 12 هـ / 18 م من خلال رحلات المغاربة، أطروحة دكتوراه. الجزائر: كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة.
14. صالح عباد. (2007). الجزائر خلال الحكم التركي 1514 - 1830 (المجلد 2). الجزائر: دار هومة للطبع والنشر والتوزيع.
15. سوريا حصام. (2012-2013). العلاقات بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر ميلادي، مذكرة ماجستير حديث ومعاصر. الجزائر: جامعة وهران.
16. عبد الحميد هنية. (2016). منشورات العثمانية بناء الدولة والمجال. تونس: منشورات أوتار تير زمان.
17. عبد الله بن محمد شويهد. (2012). قانون أسواق مدينة الجزائر 1695-1705، ت ح : نصر الدين سعيدوني. الجزائر: البصائر الجديدة للنشر والتوزيع.
18. فاطمة الزهراء صولي. (2008). الحياة الاجتماعية والاقتصادية بمدينة الجزائر أواخر العهد العثماني 1800-1830م، رسالة ماجستير . هولندا: الجامعة الحرة.

19. كوثر العايب. (2013-2014). العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات 1711-1830م ، مذكر ماجستير تاريخ حديث ومعاصر . الجزائر : جامعة الوادي.
20. محمد العربي زبيري. (1972). التجارة الخارجية للشرق الجزائري. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
21. نصر الدين سعيدوني. (2013). تاريخ الجزائر في العهد العثماني (المجلد 2). الجزائر: دار البصائر.
22. نصر الدين سعيدوني. (ب ت). النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830 (المجلد ط خ). الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.
23. نعيمة شابي. (2013-2014). العلاقات الجزائرية التونسية من خلال كتاب أتحاف أهل الزمان لإبن أبي الضياف 1198 -1288هـ ، 1782 -1872م ، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر .
24. وليام سينسر. (2000). الجزائر في عهد رياس البحر تع -ت ح : عبد القادر بادية . الجزائر: دار الفضة للنشر والتوزيع.
25. يحي بوعزيز. (سبتمبر-أكتوبر، 1980). طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن 19 م. مجلة الثقافة.
26. يحي بوعزيز. (2008). تاريخ افريقيا الاسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن التاسع عشر. الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.
27. يوسف مالكي، و حميد آيت حبوش. (2022). مسألة الحدود بين إيالتي الجزائر وتونس وأثرها على النشاط التجاري في القرنين 17 و 18 م. المجلة الجزائرية التاريخية ، 1.

❖ المراجع باللغة الأجنبية

1. Charles, F. (1872). *Les Corporation Des metiers a constantine avant la conquete francaise RaN16. Alger.*
2. Maggil, T. (1815). *Nouveau voyage a tunis publie en 1811. Paris: Editeur de Dictionnaire Des Science Medicales.*